ترجمات القرآن الكريم وطباعاته عند الغرب

د. فتح الله محمد
المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي. تيسمسيلت

الملخص:

كان القرآن وما يزال في صميم اهتمامات الغرب من القرون الوسطى إلى التاريخ المعاصر، وراح حلمهم بامتلاك ترجمات وطبعات للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات القومية الأوروبية الحديثة والمعاصرة يزيد من معرفتهم بالإسلام والمسلمين، تدعي جميعها الانتساب إلى الرؤية التي تقوي جسور التواصل بين الشرق الإسلامي والغرب من جهة، وهم مكلفون بالحفاظ على برنامجهم القديم الجديد "دحض الإسلام" رافقه شعور معاد للإسلام من جهة أخرى، وهو مجهود أكثر إحراجا وعرضة للجدل في العالم العربي والإسلامي.

Résumé

Le Coran était toujours au cœur des préoccupations de l' Occident depuis le moyen âge à l'histoire contemporaine, ils ont affirmé leur rêve de posséder son propres traductions et éditions du Coran à la langue latine , puis aux langues nationales européennes modernes et contemporaine accroître leur connaissance de l'islam et des musulmans , est au courant de tous appartenant à la vision qui renforce les liens entre l'Orient musulman et l'Occident d'une part , et ils sont responsables du maintien de l' ancien nouveau réfutent l'Islam qui est accompagnée d' un sentiment anti- islamique d'autre part , l'effort est plus embarrassant et susceptible d'être controversée dans le monde arabe et islamique.

مقدمة

شهدت أوروبا من القرون الوسطى إلى القرن العشرين اهتماما متزايدا بموضوع ترجمة القران الكريم وطبعاته، وما تفرع عن هذا الموضوع أو تشعب إليه من قضايا ومشكلات، وقد تواقت هذا الاهتمام الترجمي مع كثرة في عدد الترجمات من اللاتينية إلى اللغات القومية الأوروبية. وشروع كل هؤلاء المستشرقين والمترجمين وسعيهم في تدعيم بلدانهم بترجمات وطنية حديثة ومعاصرة، الأمر الذي ترتب عليه أن أصبحت هذه الأعمال الترجمية المثيرة للجدل من جهة هوة تزيد عمقا واتساعا، ومن جهة أخرى قنطرة تربط بين الإسلام والمسيحية، وبالتالي فان قضية ترجمات القرآن الكريم وطبعاته عند الغرب هي قضية شائكة، وفي الغالب تسلط الضوء وتلخص نمط تفكير غربي خالص تجاه النص القرآني والإسلام ينم ربما عن جهل أو ينم عن كره، ومسالة الترجمة شكلت معضلة محيرة في العالم العربي والإسلامي المتمثلة في الرفض من جهة، والقبول من جهة أخرى، وكمقدمة لدراسة هذا الموضوع، سنطرح الأسئلة التالية:

1.ما المراد بالترجمة اللاتينية الأولى؟

2. أوفق هؤلاء فيما ذهبوا إليه؟

3.ما المقصود بطبعات القرآن الكريم؟

4.كيف حلت مشكلة قبول ترجمة القرآن في العالم العربي والإسلامي؟

- أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم:

إذا عدنا صعدًا إلى الوراء حتى القرن الثاني عشر وجدنا اهتماما وإحساس غير مسبوق للعلم العربي من طرف لاتيني أوروبا، وخاصة بعد أول حرب صليبية. وقد كان هدفهم "الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامي ونقل هذه المعرفة (لأوروبا)"[1]. في مثل هذه الأحوال، فإن محاولة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، هو مشروع ومجهود قاده "بطرس المبجل" (1094-1156) (Pierre le vénérable) رئيس ديركلوني، والذي كشف عن نواياه وخلفياته من وراء الإقدام على هذا العمل غير المسبوق من خلال قوله:" إنني أهاجمكم _ليس بالسلاح ولا بالعنف مثلما اعتاد أصحابنا أن يفعلوا ولكن بالعقل، ليس بالكراهية، ولكن بالحب"[2]. فالمسألة بهذا الشكل تعني طريقة عمل ذكية ضمن سياقات تاريخية واجتماعية محددة تماما. وعندئذ يمكننا أن نرسم الملامح الأولية لميلاد الفكر الغربي داخل الكنيسة. وهكذا تتجلى الأهمية البالغة لهذه الرؤية الجديدة، أو الحيلة المبتكرة التي نقلت

المعركة بين المسيحية اللاتينية والإسلام من ميدان الحرب والمصادمات العسكرية إلى ميدان المصادمة الفكرية الجدلية. وفي الحقيقة ما هذه الإستراتيجية إلا حرب صليبية هادئة، وراح الهم الفكري الاستشراقي المرتبط بالكنيسة يتشكل ويوسع من مجالات المعرفة وأطرها.

والجدير بالإشارة هنا أن ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية الصادرة عام 1143 هي إحدى المعارك الصليبية الهادئة، وعلى هذا الصعيد يمكن اعتبار هذا العمل الترجمي بمثابة مختبر غني جدا، إذا ما تجرأنا ودرسناها. وقد قام بهذا العمل المهول والمثير للجدل كل من "هرمن الدلماشي" (Hermann de Dalmatie) والإنجليزي "روبرت كِنت" (Robert Kennet)، وشاركهم في هذا العمل عربي مسلم، وكانت مهمته مراجعة الترجمة[3]، وجاء هذا العمل الجماعي تلبية لطلب "بطرس المبجل". ويعاب على هذه الترجمة "أنها أقرب إلى التلخيص الموسع Paraphrase منها إلى الترجمة، فهي لا تلتزم بالنص دقة حرفية. ولا تلتزم بترتيب الجملة في الأصل العربي، وإنما هي تستخلص المعنى العام في أجزاء السورة الواحدة وتعبر عن هذا الترتيب من عند المترجم"[4]. وعلى هذا الصعيد يمكن القول بأن هذه الترجمة تهدف إلى دحض الإسلام من جهة، ومن جهة أخرى الدفاع عن المسيحية، ينبغي أن يتعرض الدارسون للتصورات العامة لهؤلاء المترجمين، ويدرسوا المناهج التي يتبعونها أو درجة التبعية للكنيسة، كما ينبغي أيضا أن نعرف المنشأ الثقافي والفكري والاجتماعي لشخصياتهم، والقناعات التي يعتنقونها. ورغم هذا كله، لم يمنع هذه الترجمة من أن تصبح المصدر الوحيد حول القرآن الكريم والإسلام لحوالي خمسة قرون بالنسبة للأوروبيين، وفرضت في الوقت نفسه أثرها إلى حد كبير على تاريخ ترجمات النص القرآني.

وفي الحقيقة لم يستطع الغرب تجاوز هذه الترجمة حتى في عصر النهضة والإصلاح في أوروبا، وخير دليل على ذلك طباعة الترجمة اللاتينية الأولى بعد اختراع المطبعة وتمت في طبعتين: الطبعة الأولى عام 1543 والطبعة الثانية عام 1550 في بازل بسويسرا من طرف المستشرق السويسري "بلياندر" (Theodore Bibliander) (1504-1564). وهذه الفترة التاريخية تميزت بصعود نجم الدولة العثمانية، وخاصة بعد سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين، وهكذا أصبح الخطر العثماني واقعا يجب محاربته، وكلنا يعلم مدى الدور الذي لعبه العثمانيون وكيف انها شكلت تاريخيا خنجرا غرس في قلب أوروبا. هذا ناهيك عن إدراك مارتن لوثر خطر حركته الإصلاحية على المسيحية، وعلمه بحجم التعديل الذي يجريه على الكاثوليكية. فلذا ساهم مع "بلياندر" على طبع الترجمة اللاتينية الأولى، ونشر "دحض الإسلام" لبطرس المبجل مرافقا لها.وهذا إن دل فإنما يدل على أن "لوثر" أراد أن يبرهن للمسيحيين الأوربيين أنه مازال مسيحيا بالرغم من حركته الانشقاقية ضد الكاثوليكية، والدليل على ذلك كرهه للإسلام والمسلمين، وانخراطه في عملية دحض الإسلام، وهي مهمة ملقاة على عاتقه تبدو شديدة التعقيد والصعوبة.

وهذا العمل ما هو إلا إعادة لإظهار هذه الترجمة السقيمة والتي كانت عمل واسع معادٍ للإسلام، هدفه طمس الإسلام داخل جوحامي مملوء بالأحكام المسبقة التي تمنعهم من رؤية الأمور بوضوح، إنها عمل يشهد اندلاع الصراع من جديد.

- الطبعات القرآنية في نصها العربي عند الغرب:

فما تجدر الإشارة إليه أن الغرب ما دام واقعا تحت تأثير امتلاك طبعة للقرآن الكريم، فانخرط في استخدام تقنية المطبعة الحديثة من أجل طبع أول طبعة للقرآن في نصه العربي، وذلك بالبندقية عام 1530. غير أن جميع النسخ تم حرقها[5]. من منا لا يشعر اليوم بالضرورة القصوى لطرح السؤال التالي: لماذا أحرقت هذه الطبعة؟

وكل هذا الكلام لا يعني التحلي عن الفكرة، وهي حالة القس الألماني " أ.هنكلمان "الذي قام بإصدار طبعة عربية للقرآن الكريم بهامبورغ (ألمانيا) عام 1694، وكانت أولى الطبعات للنص القرآني بالحروف العربية.

ومع هذا فإن هناك طبعة أخرى تلت إصدار "أ.هنكلمان"، وهي في نفس الوقت، ترجمة لاتينية ثانية للقرآن الكريم وطبعة للنص العربي قام بها "مراتشي" (Louis Marracci) عام 1698، وقد أرفق هذا الأخير الترجمة بـ"الرائد إلى الرد على القرآن"، الذي نشره سابقا عام 1691 في مطبعة هيئة نشر الدعوة التابعة للبابا (Congregatio de Propagationé Fidei)[6].

لا ريب أن هذا العمل موغل في كراهيته للإسلام من جهة، ومن جهة أخرى، الدعاية للمسيحية الكاثوليكية. ولم يبق لمراتشي من موضوعية ونزاهة سوى إرفاقه الترجمة بالنص العربي، ألا يجب علينا أن نتساءل أيضا عن دوافع "مراتشي"، وتثير مناقشة مثل هذا الموضوع صعوبة كبيرة في امتلاك مصادر من الدرجة الأولى، ولا يمكننا أن نبدي حكما خول ذلك انطلاقا من هذا العمل، بل علينا أن نتحقق من نواياه التي يقوم بها عندما يلجأ إلى أساليب الكنيسة.

وقد أولت روسيا اهتمامها بالقرآن الكريم، وخاصة عندما طبعت ونشرت نسخة كاملة للقرآن الكريم في نصه العربي سنة 1787 ببطرسبورغ، برعاية إمبراطورة روسيا آنذاك كترينا، ليستفيد منها رعاياها المسلمون وقد أشرف على الطبع الملا عثمان إسماعيل [7]. ولم يكن ممكنا أن تكون الأمور في روسيا على غير هذا النحو، ذلك أن مقاطعة تترستان الروسية بها عدد كبير من المسلمين، وكانوا آنذاك بحاجة ماسة إلى مصاحف مطبوعة، ومن الواضح إن هذا هو السبب، إن مثل هذا العمل يعتبر خدمة للأقلية المسلمة، وانخرط الروس أيضا في هذا النهج وربما كان سببا قويا في ميلاد مدرسة استشراقية روسية، وبكلمة أخرى أكثر وضوحا فان القرآن الكريم والإسلام سيدخل في دائرة اهتمامات الروس.

ولا ريب في أن الطبعة الأكثر شهرة في الغرب، كانت طبعة النص القرآني العربي الأصلي (coran textus arabicus) التي قام بها الألماني "جوستاف فلوجل "(Gustave Flugel) عام 1834بليبتسغ، طبعا هي "طبعة- لا نقدية للنص القرآني المتلقي"، إن هذا الحرص المستمر والدائم على امتلاك مثل هذه الطبعة، وتثبيتها قد تطلب وقتا إلى حد ما طويل على المستوى العلمي، ونقبع خلف هذا الكلام رؤية تنويرية قد سيطرت بالفعل على الموقف الغربي في القرن التاسع عشر.

وقد اعتمد عليها المستشرقين والباحثين الغربيين لدراسة القرآن الكريم، الإسلام والمسلمين لما يقرب من قرن تقريبًا، ولم يأفل نجم هذه الطبعة إلا بعد ظهور الطبعة الإسلامية القاهرية للقرآن الكريم بقراءة حفص (مصحف الحكومة المصرية) (l'édition du Caire) عام 1923.

وما يزال حتى الآن يستعمل ترقيم طبعة "فلوجل" للآيات في بعض الأدبيات الاستشراقية، كما وينبغي أن نعلم أيضا أن معظم الأعمال الاستشراقية تستعمل الترقيم المزدوج، ويعاب على هذا الإنتاج عموما، والدراسات القرآنية خصوصا عدم الأخذ بترقيم الآيات القرآنية الشريفة حسب الطبعة القاهرية.

لجأ الغرب للمطبعة في أماكن عديدة سواء كانت في أوروبا أو العالم العربي، ونفهم من ذلك انه انتقل من عالم المخطوط إلى عالم المطبوع، وهذه نقلة معرفية وتقنية ساهمت في تطور الغرب. إلا أن العالم العربي والإسلامي كان له طريقة خاصة في تناوله مسالة المطبعة، وهي نقطة حاسمة، وخاصة الدولة العثمانية التي ترددت "في طبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والفلك التي لم يجرؤ احد على طبعها إلا بعد ظهور فتوى من شيخ الإسلام عبد الله الافندي سنة 1716 بجواز ذلك ما عدا الكتب الدينية، التي استصدرت فتوى أخرى بعدها لإجازتها".[8]

لم يكن ممكنا أن تكون الأمور على غير هذا النحو، إن هذا التأخر التاريخي في قبول المطبعة يكشف بشكل دقيق عن الكيفية التي تم بها التعامل مع هذه الإشكالية التقنية التي اعتبروها دنسا في البداية، لأنها تصدر عن الغرب، على أي حال خرج العالم العربي من إطار تلك الرؤية الضيقة عندما دخلت مصر المطبعة عن طريق "الحملة الفرنسية التي احضرها نابليون معه سنة 1798 لطبع المنشورات السياسية والأوامر باللغة العربية، وكانت تعمل وهي على السفينة في عرض البحر، وحيثما اقتحمت هذه الحملة ثغر الإسكندرية قام رجالها بتوزيع المنشورات التي أعدوها في البحر، وأطلق على تلك المطبعة اسم "المطبعة الأهلية"، ثم انتقلت إلى القاهرة واستمرت في عملها إلى سنة1801حيث تم انسحاب الفرنسيين"[9]

إن تثبيت المطبعة وترسيخها في مصر قد تطلب وقتا طويلا الى حد ما "استقر الامر لمحمد علي فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية. وسميت بالمطبعة الأهلية أيضا وذلك في سنة 1821ثم انتقلت إلى بولاق فعرفت بمطبعة بولاق، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسايكي السوري"[10]

إن هذا الحرص المستمر والدائم على امتلاك المطبعة التي ما انفكت تتزايد أهميتها منذ تدشينها في مصر يبرهن بوضوح بمجرد وجودها على صحة الدخول في الحداثة، وسنحت للعالم العربي الفرصة ان يصدر طبعة عربية وإسلامية للقرآن الكريم سميت "الطبعة القاهرية" عام 1923/ 1924.

- ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات القومية الأوروبية:

في الحقيقة، كان لأول ترجمة للأناجيل إلى اللغة القومية الألمانية على يد " لوتر" (M. Luther) الأثر الكبير في أنفس أصحاب اللغات القومية الأوروبية الأخرى، فحذو حذوه وترجموا الأناجيل هم الأناجيل إلى لغاتهم الوطنية الأصلية. وقل الأمر نفسه عن فرنسا، حيث

أتاح "أمر لويس الثاني عشر عام (1510) باستعمال الفرنسية- بدلا من اللاتينية...وأصدر فرنسوا الأول في 1539 ذلك الأمر الذي أشتهر باسم Cotterets-Villers القاضي باستعمال هذه اللغة في جميع الأدوات الحكومية"[11]. كل ما في الأمر هوان اللغات القومية الأوروبية حظيت باهتمام واسع واستثنائية وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى أفول نجم اللغة اللاتينية لغة الكنيسة وبروز لغات جديدة في مقابلها، وهذا ما حصل في مجال المسيحية، وهو بذلك ينزع غطاء القداسة عن لغة اللاتين، ومن المعلوم أن المطبعة الحديثة ذات الحروف المتحركة ساهمت في رواج هذه اللغات الحديثة.

وضمن ظروف كهذه ولدت ترجمات باللغات القومية الغربية، سوف يكون من المفيد أن نذكر منها:

الترجمة الإيطالية الأولى للقرآن الكريم التي قام بها "أريفابيني" (Andrea Arrivabene) عام 1547، فيما يخص المسألة شرح المترجم أنها ترجمة من النص العربي مباشرة، ولكن على الرغم من كل ذلك فإنها تظهر بجلاء أنها نقل بتصرف لترجمة الأولى اللاتينية طبعة "ببلياندر"[12]. وعن هذه الترجمة الايطالية جاءت الترجمة الألمانية الأولى عن طريق "شفايجر" (S.Schweigger) عام 1616 بنورينبرغ. وكذلك جاءت عن هذه الترجمة الألمانية ترجمة هولندية عام 1641، وكل ذلك لا يساعد على رؤية الأمور الإسلامية بشكل واضح، وهذا شيء يؤسف له، ولكنه شيء طبيعي ضمن العمل الترجمي في وقتها.

كما وينبغي ألا ننسى بان أول ترجمة فرنسية لم تظهر إلا عام 1647 مع "دورير"(André du Rayer) تحت عنوان (l'alcoran de Mahomet)، إذ اعتمدت على النص اللاتيني وهي من أشهر الترجمات الفرنسية، وأعيد نشرها لسبع مرات طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهذا دليل على نجاح واضح. وهذه الترجمة أعطت ميلاد للترجمة الانجليزية الأولى التي قام بها "روس" (A. Ross)، وترجمات أخرى هولندية وألمانية وروسية[13]. وكانت كل هذه الترجمات بعيدة عن النص العربي المباشر.

ولكن في القرن الثامن عشر بدأت تظهر ترجمات جاءت مباشرة من العربية من بينها، ترجمة "جورج سيل" (G.Sale) عام 1734بلندن، ورغم ادعائه باحترام النص العربي مباشرة، إلا أن "يوهان فوك" يؤكد أن "سيل" "ترجم من النص القرآن الأصلي، ولكنه استعان بالصياغة اللاتينية لمراتشي، الشيء الذي مكنه بدوره من الحكم عليها بأنها ترجمة أمينة وإن كانت حرفية"[14]. وضمن هذه الشروط، فإن المترجمين الغربيين اعتمدوا كثيرا على ترجمتين أساسيتين حتى بداية القرن التاسع عشر، الأولى، كانت ترجمة "مراتشى" للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، والثانية كانت ترجمة "سيل "إلى اللغة الانجليزية. فهنا نلاحظ أن ترجمتي "مراتشي- سيل" شكلت من دون شك رحمًا للكثير من الترجمات الأوروبية التي جاءت بعدها. دائما هناك وقت طويل يفصل بين بلورة ترجمات أولى وترجمات ثانية.

نجد أن الأغلبية العظمى من مترجمي القران الكريم في تلك الفترة امتازت ترجماتهم في نهاية المطاف على المساحة الأوروبية بأنها تمثل ذروة ما يسمى "ترجمة-دحض" ونموذجها ترجمتي "مراتشي- سيل"، والتي ساهمت في التعريف بالإسلام من جهة، ومن جهة أخرى تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

ولم يتغير الحال إلا مع ظهور الترجمتان الألمانيتان للقرآن الكريم في عصر التنوير عام 1772و1773 على التوالي، والتي اعتمدتا على النص العربي دوان واسطة، فالترجمة الأولى قام بها "ماغرلين" (David Friedrich Megerlin) وسارت في نفس الطريق التي مرت عليه الترجمات السابقة. وبالرغم من هذا كله فقد قرأها "غوته" وأعجب واهتم بالإسلام[15]. والترجمة الثانية قام بها "بويزن" (Friedrich Eberhardt Boysen) وكان يقصد من ترجمته للقرآن الكريم الإسهام في تصحيح المعرفة بالإسلام[16]. وعلى هذا النحو وضعت في اللغة الألمانية العنوانين التاليين:

"الإنجيل التركي أو أول ترجمة ألمانية للقرآن بالاعتماد على النص العربي، أنجزها وأفرد لها بابا لتبرير جدواها وإبراز فائدتها د.ف. مرغلين".[17]

وإليك العنوان الثاني:

"القرآن أو شريعة المسلمين من وضع محمد بن عبد الله، إلى جانب بعض الابتهالات القرآنية، ترجمة مباشرة عن العربية وأثراه بتعاليق وفهرست ونشره تلبية لطلب ف. إ.بويزن".[18]

أيا يكن من أمر، فان المشكلة هي أن الأزمة في أول أمرها مقصورة على الصراع بين العثمانيين وأوروبا في العصر الحديث، إنما وقع ذلك بسبب إفراط الغرب في الاعتقاد بأن الأتراك يمثلون الإسلام، فنظروا إلى الإسلام على انه العثمانيين، وكانت أوروبا في ذلك العصر تعيش رعبا كبيرا من وصول الأتراك إلى أوروبا الغربية واجتياح الدين الإسلامي لكامل أوروبا المسيحية، وهو الأمر الذي انعكس في أعمالهم الترجمية، وفي هذه الظروف ظهرت فكرة صياغة عناوين مثيرة لترجمات القرآن الكريم إلى الألمانية، وانظم إلى هذه الحركة كلا من "مرغلين" و"بويزن" اللذين تأثرا بالظروف السياسية والدينية المشكلة للمناخ المفاهيمي الذي تحركا فيه معا.

ويعرض العنوانين واحدة من وجهات النظر الاستشراقية التي يمكن أن تقدم أو تقال بخصوص الدراسة الحالية.

ولعل هذا الميل في الإسراف في التعبير والصياغة يكون أكثر وضوحا في ظروف الصراع الحضاري والثقافي والديني، إذ يحدث حنين لا يمكن فهمه، وذلك لتمسك بماض يقتصر على فكرة الصراع.

ومع ذلك، يتضح إن الترجمتين تتعامل مع النص الأصلي مباشرة آملين في أن توفق إلى ما لم يوفق إليه من سبقها في الاهتمام بذلك. وهذا التصور يعطي الأولوية للنص الأصلي العربي المباشر.

وهكذا، أتاحت هذه الترجمات التي اعتمدت على النص الأصلي مباشرة فتح المجال لمستشرقين آخرين فيما بعد وخاصة القرنين التاسع عشر والعشرين، من المفيد أن نظيف إلى ذلك، بعض المترجمين الفرنسيين الآتية أسماءهم:

كازيمرسكي (Albert Felix Ignace Kazimirski)

ريجيس بلاشير(Régis Blachere)

دونيس ماسون (Denis Masson)

أندريه شوراكي (Andre Chouraqui)

بينوت (A.Penot)

ادوارد مونتي (Edward Montet)

جان جروسجان (Jean Grosjean)

سفاري (M.Savary)

جاك بيرك (Jacques Berque)

- إشكالية ترجمة القرآن الكريم بين الرفض والإباحة

يكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة، نظرا لما يتمتع به مفهوم "الرفض والإباحة" من أهمية في ميدان ترجمة القرآن الكريم. ويتفق كثير من الباحثين إلى تقسيم العلماء المسلمين ورؤيتهم تجاه القضية إلى فئتين، الفئة الأولى تؤيد ترجمة القرآن الكريم، والفئة الثانية تمنع ترجمته. والوقوف على تسليط الضوء على هذه الإشكالية تجعلنا قادرين على كشف أسبابها.

بقيت قضية ترجمة القرآن الكريم مسكوت عنها في العالم الإسلامي لمدة طويلة لأسباب كثيرة، غير أن التاريخ الإسلامي سيسرد قصصا كثيرة حول الترجمات الجزئية للقرآن الكريم أثناء حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.ليس غريبا إذن أن يكون عالمية الرسالة المحمدية، وبعث الرسول –صلى الله عليه وسلم- إلى حكام الدول التي كانت تحيط بشبه الجزيرة العربية، وهي رسائل حملها رسل مسلمين إلى عظماء هذه الدول المحيطة بالعرب، كهرقل حاكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والمقوقس حاكم مصر القبطية، وكسرى عظيم الفرس، والنجاشي ملك الحبشة. وكلهم استلموا رسالة اشتملت على آيات من القرآن الكريم مترجمة إلى لغة تلك البلاد، وعلى هذا النحو وضعت في لغاتهم معاني لآيات قرآنية تستهدف دعوتهم للدخول في الإسلام.

وتشهد على عالمية القرآن الكريم والدعوة الإسلامية الآيات القرآنية الشريفة التالية:

-﴿ أَولَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ والْأَرْضِ وما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[19].

-﴿ وما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾[20].

-﴿وما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[21].

-﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ وأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ ومَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُو إِلهٌ واحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[22].

-﴿وما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُو إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾[23].

-﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾[24].

وسوف يكون من المفيد أن نذكر الآية القرآنية الشريفة التي تشير إلى وجوب التبليغ:

-﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ وأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ ومَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُو إِلهٌ واحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[25].

إن كل ما في الأمر هو أن هذه الرسائل الموجهة للأقوام الأخرى، هي رسائل متضمنة لترجمة تفسيرية لبعض الآيات إلى لغات الأقوام غير العربية لتعريف بالإسلام، ودعوتهم للدخول في الدين الجديد، وكل هذه الرسائل الموجهة إلى عظماء تلك الدول ما هي إلا دليل على عالمية الرسالة المحمدية، وعلى أنها ليست عربية فقط، بل أرسلت إلى الناس جميعا، أي أنها عالمية وليست محلية، وزادت أهمية الترجمة بعد الفتوحات الإسلامية، وبعد ضم كل هذه الأمم للخلافة الإسلامية، بمعنى انتشار الإسلام خارج مركزه العربي، ووصول الرسالة إلى بلدان وثقافات ولغات وأجناس جديدة، وهذا دليل على قوة وصدق الرسالة.

وقد طلب الفرس المسلمين الجدد من رمزهم "سلمان الفارسي" بترجمة سورة الفاتحة إلى الفارسية، وصف "محمد صالح البنداق "بأن « الفرس كتبوا إلى سلمان رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية»[26]، ويضيف في موضع آخر قائلا: «كما يشير مرجع آخر أيضا: أن سلمان الفارسي كتب الفاتحة للفرس بلغتهم بدءا طبعا ببسم الله الرحمن الرحيم... وعرضها على حضرة النبي –صلى الله عليه وسلم- فلم ينكر عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعث سلمان بها إليهم»[27].ولعل الفرس كانوا يريدون من دون شك أن يطلعوا على مقاصد ومعاني القرآن الكريم، وحتى ولو كانت ترجمة جزئية له، والمتمثلة في سورة الفاتحة. ويمثل هذا العمل الترجمي الذي قام به "سلمان الفارسي" مرحلة بدايات الترجمات الجزئية للقرآن، كما لم يمنعها الرسول-صلى الله عليه وسلم-وهكذا كانت ترجمة "سلمان الفارسي" الجزئية نوعا من الترجمة التفسيرية في زمن النبوة. آنذاك لم تكن هناك إشكالية في ترجمة النصوص القرآنية في بدايات الإسلام. والسؤال الذي يفرض نفسه لماذا لم يترجم القرآن الكريم كاملا إلى اللغات الأخرى فيما بعد؟

ينبغي هنا أن نسجل وجود فريقين لهما رؤيتين مختلفتين: فالفريق الأول يؤيد جواز ترجمة القرآن، وحجتهم في ذلك ضرورة ترجمة النص القرآني إلى من لا يفهم اللغة العربية، حتى يتدبروا معانيه، ويتلقونه في لغاتهم الأصلية.

أما الفريق الثاني فيعارض فكرة جواز ترجمته، ويدعوا إلى رفضها ومنعها، وحجتهم في ذلك خوفهم من تغيير المعاني الإجمالية وضياع المعاني الحقيقية للنص القرآني.

وهكذا أصبحت ترجمة القرآن الكريم موضوع إشكالي بين رافض لها ومؤيد لها، ولكل واحد رؤيته وحجته وبراهينه.

فعلى سبيل المثال، أجمع « الأئمة على أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة، ويمنع فاعل ذلك أشد المنع، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف في قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه، بل يوجب الركاكة»[28]، هناك جانب آخر لا يقل أهمية عن ما تقدم وهو قول "محمد حميد الله": «قال أحد المبشرين لبعض علماء الكلام الساذجين: «القرآن معجزة حقا، لا تتحمل بلاغته الترجمة» فوثب هذا العالم لشدة السرور وقال: «الفضل ما شهدت به الأعداء»، وكتاب: «القرآن تصعب أو تستحيل ترجمته»، وتبعه آخرون في الخطوة الثانية، قالوا: «القرآن لا تجوز ترجمته»»[29]، وهذه الرؤية بعدم جواز ترجمته أعاقت وصول النص القرآني وتلقيه في لغات قومية غير عربية، وهذا لن يساعد في انتشار الإسلام خارج حدوده الجغرافية، وذلك ليس في صالح للدعوة المحمدية العالمية، والمجهود المحرم لترجمته هذا، ربما ساعد حركة التنصير في البلاد العربية وغير العربية، حيث ترجمت الأناجيل إلى عدد كبير من لغات العالم المختلفة ولهجاته، وقد يكون انتصارا استراتيجيا يحسب للغرب العلماني والمسيحي المعاد للإسلام، والمروج للإمبريالية والاستعمار والتبشير بكل قوة.

رغم هذا السياق التاريخي المعاد للعرب والمسلمين، والذي ساهم في الحد من انتشار العربية وترجمة القرآن الكريم، ظهرت في بلاد الإسلام دراسات تحرم «ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد ومنافاة الإسلام» [30]، حيث برهن "محمد رشيد رضا" على «حرمة ترجمة القرآن في الإسلام، وعلى عدم إمكانها» [31]، وفي نفس السياق يضيف آخر قائلا: «للقرآن خواص وأوصاف عالية تأبى الترجمة وتوجب بقاءه عربيا» [32].

وهكذا تتجلى أهمية الموضوع ذلك أن المعنى هو لم تزل تلك النظرة المحرمة لترجمة القرآن الكريم تتحكم في ذهنية العلماء المسلمين لمدة طويلة من الزمن، رغم الاحتكاك مع الغرب والحداثة الغربية، ابتداء من القرن التاسع عشر، إلا أن هذا التلاقي لم يسمح لهؤلاء بتغيير آرائهم، إلا مع ظهور ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية بأمر حكومة أنقرة اللائيكية (كمال أتاتورك) بعد سقوط الخلافة الإسلامية عقب الحرب العامية الأولى و«إقامة المترجم مقام الأصل في الصلاة وغيرها»[33] وبعد هذه الحادثة التاريخية الترجمية المثيرة للجدل حينها، التي أثارت صراعا بين العلماء المسلمين، وخاصة في مصر لذا «أصدر الشيخ محمد مصطفى المراغي «بحثا» في ترجمة القرآن الكريم وأحكامها، نشرة سنة 1932، ثم نشرته "مجلة الأزهري" في السنة السابعة عام 1355هـ»[34]، وهذا الشيخ هو أحد رواد جواز ترجمة القرآن إلى اللغات غير العربية، وبرهانه أو حجته في ذلك أن «القرآن لفظ عربي معجز وله معنى، أما نظمه العربي فلا سبيل إلى نقل خصائصه لأن هذا مستحيل استحالة قطعية»[35]، وفي سياق متصل يقول هذا الأخير: «إنّ ترجمة القرآن الكريم ترجمة تامة تؤدي من المعاني والتأثير ما تؤديه عباراته العربية، ضرب من المحال»[36]. لم يعد ممكنا اليوم أن نتكلم عن "ترجمة القرآن" لأنها غير ممكنة، ولكن يمكن أن نتكلم عن "ترجمة معانيه" فالمصطلحان متمايزان، لماذا؟

وهكذا استطاع الشيخ "محمد مصطفى المراغي" بإيجاد حل وسط بين المحرمين لترجمة القرآن الكريم وأصحاب جوازه، إذ فرّق بين مصطلح "ترجمة القرآن" و"ترجمة معانيه"، وهكذا خرج الموضع من بين المطرقة والسندان، وفتح بابا جديدا يفسح للمترجمين وللنص القرآني بأن يتجاوز ويهاجر إلى لغات العالم المختلفة، وردم الهوة التي تفصل بيننا وبين الأوروبيين وخبرتهم في ترجمة التوراة والأناجيل إلى اللغات المختلفة، وهي تجربة ترجمية يمكن قياسها زمنيا بعدة قرون، وهو فارق زمني وتاريخي كبير، بل وتفاوت حضاري في هذا الميدان أدى بهم إلى تطوير مناهجهم، وآليات معرفة لغات الآخر غير الأوروبي، وبالمقابل ما زلنا في بداية طريق العمل الترجمي من العربية إلى اللغات العالمية الأخرى.

هناك جانب آخر حصر فيه الرافضون ترجمة القرآن في أربع نقاط: «1- أنّ القرآن الكريم معجز لا يمكن ترجمته، 2- أنّ ترجمة القرآن بحرفيته غير مسورة، 3- أنّ الترجمة تفقد القرآن روعة النظم العربي والطلاوة واللذة والتأثير في النفوس، 4- إنّ في الترجمة تأويل لبعض الألفاظ»[37]، ولذلك ظهرت فتوى إباحة الشيخ لترجمة معاني القرآن وليس "ترجمة القرآن" يوم 15 أفريل 1936، وقد أدخلت هذه الفتوى العالم الإسلامي في مرحلة جديدة، حيث يصبح فيه النص القرآني المترجم إلى لغات العالم، خادما للرسالة المحمدية العالمية وناقلا لمعاني القرآن الكريم إلى جميع أصقاع الأرض، لأن الإسلام دين عالمي وليس قُطْرِي.

ثمّ يتعيّن علينا إبرازا بعد كل هذا، أن نرجع إلى التكلم عن النسخة القاهرية 1924/1932 (L'édition du carie)، أو نسخة الملك فؤاد، ففترة هذا الملك كانت حافلة بالأحداث التاريخية الكبيرة التي خدمت الإسلام والمسلمين، ففيها ولدت رؤية قبول ترجمة معاني القرآن وشرعيتها ما بين 1925و1936، وهي مرحلة تاريخية شهدت جدلا محتدما حول شرعية الترجمة، وخاصة بعدما حاول كمال أتاتورك إحلال الترجمة التركية محل القرآن حتى في الصلاة وهذا شيء مستحيل، لأن «ولا شبهة أيضا في أنه إذا عبر عن معاني القرآن بعد فهمها من النص العربي بأية لغة من اللغات لا تسمى هذه المعاني ولا العبارات التي تؤدي هذه المعاني قرآنا»[38]، فكيف يتعبد به في الصلاة.

إنّ ترجمة معاني القرآن الكريم يجب أن نجعلها نصب أعيننا كلما أردنا أن نقوم بمثل هذا النشاط الترجمي، ولذا يجب أن لا ندخر جهدا في إبرازها بكل وضوح وجلاء، ففي الماضي كان« كثيرون من المبشرين المسيحيين يعتبرون عدم إمكانية ترجمة القرآن العقبة الكبيرة للإسلام، بل وكتب "روكرت" يقول: «تختص كتب المسيحيين بميزة كبيرة، تقف أمامها كتب الإسلام صامتة في المقدس فتولد أصالة من جديد، ولهذا فإنه يميل أكثر من ذاك إلى نشر البركة كالبذرة التي تبث نباتا حسنا في كل مرعى»»[39]، وهذا من شأنه أن يهز همة المترجمين المسلمين للقيام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى جميع لغات العالم، فالمستقبل للإسلام، وبهذه الترجمات سيفتح المسلمين الشرق

والغرب والشمال والجنوب دينيا ولغويا، واليوم ينبغي نقل معاني القرآن الكريم إلى لغات شرقية وغربية، وهذا العمل الترجمي لا ينتهي ولا يغلق، وفي مثل هذا الجو الترجمي الحامي يبرهن بأن الإسلام دين عالمي.

بعد كل ما أسلفناه سابقا يمكننا أن نفهم دائما أن هناك وقت طويل يفصل بين الترجمة الأولى والترجمات الثانية، فالغرب لا يتوانى عن تصحيح هذه الترجمات، إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، وهو لا يجد أي حرج في تلك المراجعات الترجمية وهوما حاول أن يفعله، ففي كل هذه الحالات نجدهم يقدمون عبر التاريخ ترجمات ثانية جديدة، والغرب بدلا من أن يدير ظهره للإسلام وللنص القرآني يحاول منذ قرون إدراكه، لكن يفسح المجال لانتشار الأحكام السلبية المسبقة عن الإسلام داخل هذه الترجمات، وهذا يزعج بشكل صارخ المسلمين ويرى البعض الآخر، بما فيهم لفيف كبير من المفكرين العرب بأنه سواء اعتمد الغرب على النص العربي المباشر، أو على ترجمة "مراكشي-سيل"، فكلهم تقريبا أسقطوا رؤيتهم المسيحية-الغربية على النص المترجم وعلى الإسلام،

وبهذا المعنى يمكن القول إن "المستشرقين القدماء أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي... إن ما كتبوا كان قطعا المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا"[40]. وبالتالي فإن المترجمين الأوائل للقرآن الكريم أثروا وما زالوا يؤثرون حتى يومنا هذا على المترجمين من أبناء ملتهم وجلدتهم، إذ لا يوجد مترجم واحد لم يرجع إلى الترجمات التي سبقته والتي استفاد منها. وخير مثال على ذلك محاولة "جاك بيرك" نقل معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية، وما خلفته من ردود أفعال سلبية في العالم العربي، وخاصة النقد اللاذع الذي وجهته له "زينب عبد العزيز" بناء على أخطاء جسيمة نتجت عن ممارسة للترجمة، وما نتج عنها من تصرفات، وعدم التقيد بالنص ولا بالمعنى، أدت طبعا إلى تشويه الترجمة والإسلام.

في الختام، مشكلة المشاكل في هذه القضية المطروحة هي الرغبة الغربية في امتلاك ترجمات للنص القرآني إلى جميع اللغات القومية الأوروبية، فهذا التسابق كان له الفضل في التعريف بالإسلام خارج حدوده الطبيعية، وتجتهد ما استطاعت في نقل خلاق لمعاني القران الكريم، وكانت تهدف إلى ردم الهوة التي تفصل بين الشرق والغرب. ويقول فريق آخر من الناس بأن هذه الترجمات الموروثة تتخذ موقفا ثابتا ومستمرا يتمثل في نفي الإسلام، وعدم الاعتراف به، حيث غطت الخطابات الاستشراقية وحجبت روح النص القرآني، وهذا هو الشيء الذي نعيبه عليهم، فهي لا تؤدي إلى كشف حقيقة الإسلام، بقدر ما تؤدي إلى إخفائها. ويقولوا آخرون، يتعين على العرب المسلمين أن يترجموا النص القرآني بأنفسهم، والحق أن هذا العمل جبار، ومن ناحية أخرى تصبح الترجمات الاستشراقية نموذج يقلد، وذلك لأسبقيتها التاريخية.

الإحالات:

1- جوزيف شاخت وكليفورد بوزورت، تراث الإسلام، ج1، تر: محمد زهير السمهوري وآخرون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص.34

2- هوبورت هيركوم وجيرونت روتر، صور الإسلام في التراث الغربي، تر: أ. ثابت، مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر،ص.60

3- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993، ص.110

4- المرجع نفسه، ص 442

5- انظر: المرجع نفسه، ص.438

6- انظر: المرجع نفسه، ص.439

7- انظر: المرجع نفسه، ص.439

8- عبد السلام محمد هارون، قطوف أدبية حول تحقيق التراث: دراسات نقدية في التراث العربي، الدار السلفية لنشر العلم،القاهرة،ط1988،1،ص.35

9- المرجع نفسه، ص.36

10- المرجع نفسه، ص.36

11- عبد الرحمن حاج صالح، "مدخل إلى علم اللسان الحديث (2)"، مجلة اللسانيات، المجلد الأول، رقم 02، معهد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر، الجزائر، 1971، ص.62

12- In encyclopedie de L'islam, Tome5, Korin Klij Kebrill, the Netherlands, 1990, P.434"Kuran" Voir: J.p.Pearson,

13- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، تر: عمر لطفي العالم، المدار الإسلامي، بيروت، ط2، 2001، ص.106

14- Voir: Ibid. P.434

15- منير القندري، "ترجمتان للقرآن في عصر (التنوير)"، مجلة فكر وفن، عدد 54، السنة التاسعة والعشرون، Inter Nationes ألمانيا، 1992، ص.62
16- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص.444
17- منير القندري، "ترجمتان للقرآن في عصر (التنوير)"،مجلة فكر وفن،ص.58
18- المرجع نفسه، ص.58
19- سورة الأعراف/الاية 185.
20- سورة الأنبياء/الاية 107.
21- سورة سبأ/الاية 28.
22- سورة الأنعام/الاية 19.
23- سورة يوسف/الاية 104.
24- سورة الفرقان/الاية 1.
25- سورة الأنعام/الاية 19.
26- محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2،،1983ص.62
27- المرجع نفسه، ص.62
28- المرجع نفسه، ص.82
29- المرجع نفسه، ص.65
30- المرجع نفسه، ص.65
31- المرجع نفسه، ص.65
32- مصطفى صبري، مسألة ترجمة القرآن، المطبعة السلفية، القاهرة،1351ه، ص.93
33- المرجع نفسه، ص.72
34- محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص.66
35- المرجع نفسه، ص.73
36- المرجع نفسه، ص.73
37- المرجع نفسه، ص.73
38- المرجع نفسه، ص.80
39- نفيد كرماني،"حول إمكانية ترجمة القرآن"، تر: محمد الحشاش، مجلة فكر وفن، العدد 79، السنة الثالثة والاربعون 2004، معهد غوته، ألمانيا، ص.04
40- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993، ص.442